تاريخ واركيولوجيا شجرة الزيتون بتونس

الطاهر غالية
المعهد الوطني للتراث

تحفظ الذاكرة الجماعية التونسية لشجرة الزيتون أبعادا حضارية ورمزية جد هامة تستمدها من الوظائف المتنوعة التي اكتسبتها هذه الشجرة المباركة منذ أقدم العصور. وان انتشار غابات الزيتون في كامل أنحاء البلاد التونسية، دليل على عراقة هذه الشجرة وقدرتها على التأقلم مع التقلبات المناخية، ودورها الفعال في تثبيت التربة ومقاومة الانجراف في جهات قاحلة تتسم بقلة الأمطار.

فهذه الخصوصية جعلت الزيتونة قابلة للغراسة في جميع أنحاء التربة سواء كانت حجرية أم رملية، ورغم المتغيرات الجيوفيزيائية، فقد حافظت شجرة الزيتون على الاستمرار والبقاء متحدية عوائق الزمان والمكان. وهناك إجماع لدى الشعوب المتوسطية على أن شجرة الزيتون، كرست عبر تاريخها الطويل، قيم التبادل والمصالحة بين هذه الشعوب وما تزال هذه القيم حاضرة في المخيال الجماعي العربي المتوسطي، إلى جانب حفاظ هذه النبتة على التوازن الطبيعي والبيئي، واستخدامها في مختلف الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية.

شجرة الزيتون المعمرة بالشرف (الهوارية)

ديون زارع أربع آلاف زيتونة(متحف النفيضة)

تعد غراسة الزيتون من الأنشطة التي كيفت عادات المجتمع التونسي عبر جل الفترات التاريخية، وكانت سببا رئيسيا في استقرار السكان في التجمعات الحضارية والقرى، وتراجع الترحال الذي كان مهددا للعمران. كما بدل هذا النشاط نمط حياة العائلات، وخلق أساليب جديدة لتقسيم العمل كانت سببا في إحداث حرف وصنائع عديدة، مثل تحويل الزيتون وصنع الجرار. ولقد خلقت هذه المهن حركية تجارية ساهمت في إزدهار المدن والقرى وفي تنشيط المبادلات، وكان لها أثر واضح على الارتقاء بنمط ومستوى عيش التونسيين.

ولم تكن غراسة الزيتون في تونس ممارسة جديدة أو نشاطا ظرفيا، بل أن وجود الزيتون البري (الجبوز) يعود إلى الزمن الرابع الأوسط. وقد تأكد وجوده في عدة جهات تونسية في العصر الحجري الحديث، ومن

المرجح أن السكان كانوا يستخرجون زيت "الجبوز" ويستغلونه في غذائهم ولأغراض التبادل التجاري وللتداوي. لكن غراسة الزيتون لم تعرف الدفع اللازم إلاّ بمجيء الفينيقيين لإمتلاكهم تقنيات الغراسة و استخدامهم أساليب ناجعة في ميادين التطعيم و الغرس، وهو ما ساعد منذ القرن الخامس(ق. م.) على غراسة الزيتون في المجال الجغرافي اللوبي البوني كما توحي به شهادة هيرودوتس عندما يذكر بسا تين في كيرانيس (جزر قرقنة).

Domestic extraction of Oil (A. Louis,Tunisie du Sud, Pl.XII, p.166).

ولم تلبث السياسة الزراعية أن تطورت في العهد الروماني المبكر وغدت شجرة الزيتون مرتبطة بالغزو الفلاحي الذي رافق الإستعمار الروماني والذي شمل معظم الأراضي الفلاحية بالمقاطعة الأفريقية التي كانت سابقا في حوزة قرطاج والنوميديين. وفي القرن الثاني بعد الميلاد، أصبحت أفريكا إحدى أهم الولايات التي تزود روما بالزيت، وفي بعض الأحيان، بعنوان الجزية. واستقرت بميناء روما " أوستيا " أعداد كبيرة من تجار أفريكا لغاية بيع زيت الزيتون *Afrari Oleari* حسب ما تؤكده المصادر التاريخية القديمة المدعومة بتواجد اللقى الأثرية.

وخلال القرن الرابع بعد الميلاد أصبحت المقاطعات الأفريقية تزود جميع الشعوب المتوسطية بما تحتاجه من زيوت. وتتوفر اليوم بالأراض التونسية شواهد أثرية لمعاصر عتيقة ترتبط بالتقنيات المستعملة في غراسة الزيتون وفي الجرش والعصر.

وتعد أصناف المعاصر التي توفرت خلال مختلف الحقب التاريخية دليلا عن ثراء وتنوع الحلول والطرق التكنولوجية التي إبتدعها القدامى. وقد كانت معاصر الزيت بالملفاف سائدة بكثرة لأن لها أفضل مردودية من طريقة العصر بالثقالة اللوبية. اللولبية. ولا شك أن لزراعة الزيتون وتصنيع زيته له تأثيرات على ظهور بعض المهن الموازية كصناعة الخزف. فالجرار المعدة لخزن الزيوت والاتجار بها والقناديل المخصصة للإنارة، تمثل عناصر أساسية مكنت الاثريين والمؤرخين من رصد إمكانيات إنتاج الزيت وطرق توزيعه جغرافيا واستكشاف مسالكه التجارية.

فإفريقيا العربية الإسلامية، إستطاعت أن ترث من العهود القديمة طاقات وتقنيات في مجال إنتاج الزيت أطنب المؤرخون العرب في ذكرها. من ذلك أن أقدم نص يروي أول غزوة عربية يخبرنا أن قائد الجيش الإسلامي تعجب من وفرة كميات النقود المتجمعة عند السكان الأفارقة. ولما تساءل عن مصدر هذا الرخاء، إلتفت أحد الأهالي إلى نواة حبة زيتون، في إشارة منه إلى قيمة شجرة الزيتون بإعتبارها رمز الثروة المكتسبة ومصدر تجددها على مر العصور.

وتبين شهادات تاريخية أخرى أن غراسة الزيتون ظلت تحتل مساحات جد شاسعة بالتراب التونسي خلال كل الفترات التاريخية. علما وان نهضة التجمعات الحضرية ومقياس تقدمها ومستوى إشعاعها في العهدين الوسيط والحديث كان مرتبطا بعدد الحمامات ومعاصر الزيت الموجودة بها.

فشجرة الزيتون تمتاز على غيرها من الأشجار الأخرى بصلابة عودها وطول عمرها، ومقاومتها للصعوبات المناخية، ونجد اليوم في تونس أشجار زيتون عمرت مئات السنين وتحظى أشجار الزيتون المعمرة بالرعاية وبالإجلال أحياناً إعتمادا على خارطة المزارات المخصصة لها بالتراب الوطني. فتقوم في الأوساط الريفية مقام خزينة للذكريات لها صلة بأحداث تاريخية أو أسطورية وبأعمال مشاهير الرجال والنساء الذين مازال الأهالي أوفياء لهم إلى اليوم.

لذا أصبح من الضروري السعي إلى المحافظة على البعد التراثي المتعلق بشجرة الزيتون وتثمينه من خلال التحفيز على تواصل البحوث الميدانية والدراسات المعمقة الخاصة بالعينات الأثرية والانتروبولجية. وذلك من خلال صياغة برنامج وطني خاص بالتعريف بكل خصائص هذه الشجرة المباركة، يجمع كل الأطراف المتدخلة ويشمل كل الجوانب بالاعتماد على البعد الوسائطي والتكنولوجيات الحديثة الرقمية.

ويمكن أن تكون نقطة الانطلاق معالجة المشروع المعطل الخاص بإعادة بناء مجمع إنتاج زيت الزيتون التابع للضيعة الرومانية المكتشفة بوادي الرمل ببوعشير (ولاية زغوان)، إعتمادا على العناصر والبيانات الهندسية الرقمية التي وفرتها نتائج الحفريات التي تواصلت على مدى سنتين. ويهدف هذا البرنامج الطموح والفريد من نوعه إلى خلق أداة تربوية أساسية لتثمين زيارة المعلم الذي تم تفكيكه وإعادة بنائه بموقعه الجديد المحاذي للسد، لغاية خلق ديناميكية ثقافية تنموية بالمنطقة وإضفاء طابع السياحة البديلة عليها في نطاق برامج الشراكة بين القطاعين العام والخاص.

معاصر الزيت بالضيعة الرومانية بوادي الرمل المنقولة

ببليوغرافيا

.

Lebreton (V), Jaouadi (S),Mulazzani (S) Boujelben(A) Belhouchet(L), Gammar (A M),Combourieu-Nebout (N),Saliège (J-F), Karray (M R),Fouache (E), **Early oleiculture or native wild Olea in eastern Maghreb: new pollen data from the sebkha lagoon Halk el Menjel (Hergla, Central Tunisia),** *Environmental Archaeology*, 2015, 20 (3), pp.265-273.

Ghalia(T), **La villa romaine de Wadi Arremel et son environnement**. **Approche archéologique et Projet de valorisation**, *Africa*, nouvelle série *Séances scientifiques III*, 2005, pp.53-86.

Brun (J-P), **Archéologie du vin et de l'huile dans l'empire romain**, éd. Errances, Paris, 2004, pp.199-228.

Belazreg (N), Ghalia(T),Mahfoudh (F),**Tunisia, Land of the Olive Tree**, *The Olive Tree in the heart of the Art and Heritage Exhibition*, Expo universelle Hanovre, 2000, pp.42-49 .